الفلسفة عند الفارابى

عندما ترجم العرب كتب الفلسفة اليونانية أ الكتب المنسوبة إلى فلاسفة اليونان عربوا أيضًا الفلسفة والفيلسوف واستعملوا هذين اللفظين فى مدلولهما.

واصطلح فلاسفة الإسلام على النظر إلى الفلسفة نظرة شمول جعلتها مرادفة للعلم فى ميادينه المختلفة، وذكروا للفلسفة تعريفات تختلف أحيانًا فى مبناها ولكنها تنتهى جميعًا إلى مؤدى واحد.

فالفلسفة عندهم هى كما يقول الفارابى "العلم بالموجودات بما هى موجودة" يريد بذلك العلم بحقائق الموجودات على قدر الطاقة الإنسانية. والعلم المقصود فى هذا التعريف هو العلم اليقين الذى تكتسبه النفس بسعيها ومجهودها، والذى يستند إلى البرهان العقلى وحده، ولا يأخذ بالظن أو التقليد.

والغاية التى يقصد إليها من تعلم الفلسفة هى - فى رأيه - معرفة الخالق جل شأنه، وأنه واحد غير متحرك، وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء، وأنه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمته وعدله.

ويوضح الفارابى السبيل لمن أراد تعلم الفلسفة فيقول: "وأما السبيل التى يسلكها من أراد تعلم الفلسفة فهى القصد إلى الأعمال وبلوغ الغاية. والقصد إلى الأعمال يكون بالعلم، وتمام العلم بالعمل. وبلوغ الغاية فى العلم لا يكون إلا بمعرفة الطبائع لأنها أقرب إلى فهمنا. ثم بعد ذلك الهندسة

. . . وأما بلوغ الغاية فى العمل فيكون أولا بإصلاح الإنسان نفسه ثم بإصلاح غيره ممن فى منزله أو فى مدينته".

ونحن نرى من هذا أن الفلسفة فى رأى الفارابى علم وعمل. وهذا العلم ليس ميسوراً لكل الناس، فإن الفيلسوف ينبغى أن يكون له بالفطرة استعداد للعلوم النظرية، وأن يكون جيد الفهم والتصور، حفوظًا، صبوراً على الكد الذى يناله فى التعلم، محبًا للصدق وأهله، والعدل وأهله، غير جموع ولا لجوج فيما يهواه، وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب، تهون عليه بالطبع الشهوات، والدرهم والدينار ومما جانس ذلك، كبير النفس عما يشين عند الناس، ورعًا، سهل الانقياد للخير والعدل، عسير الانقياد للشر والجور، قوى العزيمة على الشىء الصواب، ثم بعد ذلك يكون قد ربى على النواميس، وعلى عادات تشاكل ما فطر عليه، صحيح الاعتقاد لآراء الملة التى نشأ عليها، متمسكًا بالأفعال الفاضلة، غير مخل بالأعمال الجميلة.

هذا هو الفيلسوف على الحقيقة فى نظر الفارابى. وهو يعدد أنواعًا من الفلاسفة، ويجعلهم طبقات:

فالفيلسوف الباطل فى نظره هو الذى يحصل العلوم النظرية دون أن يحاول إفادة الغير من هذه العلوم، ودون أن يدرك الغرض الصحيح من تعلم الفلسفة يذهب الجمهور فى تحصيل السعادات المظنونة دون السعادات الحقيقية.

والفيلسوف البهرج هو الذى يتعلم العلوم النظرية دون أن يعود نفسه الأعمال الفاضلة الجميلة بل يكون تابعًا لهواه وشهواته.

والفيلسوف المزور هو الذى يتعلم العلوم النظرية من غير أن يكون معداً لذلك بالطبع فإنه ينتهى به الأمر إلى ضياع ما حصله من العلوم.

قلنا إن الفلسفة عند الفارابى علم وعمل، وهو يرى أن الأمور الموجودة فى هذا الكون تنقسم إلى قسمين:

أمور ليس وجودها بقدرتنا واختيارنا وهذه ليس للنفس الإنسانية عليها من سلطان وإنما تحاول جهدها أن تصل إلى العلم بحقيقتها.

وأمور إرادية تخضع لإرادة الإنسان فيحاول العلم بها وبقوانينها ليميز الخير من الشر والجيد من الزائف فيقدم على الفعل وهو على بينة من الأمر وبصيرة بعواقبه وغاياته.

مثل هذا التصور جعل الفارابى يقسم الفلسفة إلى قسمين:

الأول - يشمل الفلسفة النظرية وغاياتها استكمال النفس بمعرفة الموجودات التى ليس للإنسان فعلها.

والثانى - يشمل الفلسفة العملية، وغايتها معرفة الأشياء التى شأنها أن تفعل والقوة على فعل الجميل منها.

ففائدة الفلسفة النظرية هى تحصيل ما استعد له الإنسان من الكمال العلمى، أما العملية ففائدتها العلم والعمل لتمرن النفس على الفضائل وتتجنب الرذائل.

والفلسفة النظرية تنقسم فى رأى الفارابى إلى ثلاثة أقسام، هى العلم الرياضى أو علم التعاليم، والعلم الطبيعى، والعلم الإلهى.

أما الفلسفة العملية ويسميها أيضًا الفلسفة فتنقسم إلى قسمين: علم الأخلاق، وعلم السياسة.

ولكل من الأقسام الرئيسية للفلسفة النظرية فروع تتناول أصنافًا من

العلوم، فعلم التعاليم أو العلم الرياضى يشمل علوم العدد والهندسة والمناظر وعلم النجوم التعليمى والموسيقى والأثقال والحيل.

أما العلم الطبيعى فله ثمانية أقسام:

الأول - العلم بأحوال الأمور العامة التى تشترك فيها الأجسام الطبيعية كالمادة والصورة والحركة والزمان.

الثانى - العلم بالأجسام البسيطة كالسموات وعددها وبالعناصر الأربعة التى تتألف منها الأجسام وهى الماء والهواء والأرض والنار.

الثالث - العلم يكون الأجسام الطبيعية وفسادها على العموم.

الرابع - العلم بمبادئ الأعراض والانفعالات التى تخص العناصر الأربعة وحدها دون المركبات منها.

الخامس - يتناول النظر فى الأجسام المركبة من هذه العناصر وكيفية تأليفها والعلم لما تشترك فيه.

السادس - علم المعادن.

السابع - علم النبات.

الثامن - علم الحيوان.

والقسم الثالث من الفلسفة النظرية هو العلم الإلهى أو علم ما بعد الطبيعة، ويسميه الفارابى العلم الكلى، وذلك لأن علوم التعاليم أو العلم الرياضى والعلم الطبيعى إنما هى علوم جزئية لأن موضوعاتها بعض الموجودات أو بعض الموهومات، أما العلم الإلهى فهو علم كلى لأنه "ينظر

فى الشىء العام لجميع الموجودات مثل الوجود والوحدة والقوة والفعل . . وفى المبدأ المشترك لجميع الموجودات وهو الله سبحانه وتعالى" .

ويقسّم الفارابى العلم الإلهى إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

الأول - يفحص عن الموجودات والأشياء التى تعرض لها بما هى موجودة.

الثانى - يفحص فيه عن مبادئ البراهين فى العلوم النظرية الجزئية كالمنطق والهندسة والعدد، ويفحص عن مبادئ علم المنطق ومبادئ علوم التعاليم ومبادئ العلم الطبيعى ويلتمس تصحيحها وتعريف جواهرها.

الثالث - يفحص عن الموجودات المجردة التى ليست بأجسام ولا فى أجسام، ويبحث عن وجودها وكثرتها ومراتبها وتفاضلها فى الكمال إلى أن ينتهى إلى المبدأ الأقصى جل وعلا فيفحص عنه وعن وجوده وصفاته وصدور الموجودات عنه وارتباطها بعضها ببعض وانتظامها، ويبين أنه لا جور فى شىء منها ولا خلل ولا تنافر ولا سوء نظام ولا سوء تأليف، ثم يسرع بعد هذا فى إبطال الظنون الفاسدة التى ظنت بالله عز وجل فى أفعاله بما يدخل النقص فيه وفى أفعاله وفى الموجودات التى خلقها، فيبطلها كلها ببراهين تفيد العلم اليقين.

ومما لا يحتاج إلى بيان أن الفلسفة النظرية التى تنقسم إلى هذه الأقسام التى ذكرناها تمثل فى الواقع جملة العلوم النظرية. على أنه مما يسترعى النظر أن الفارابى مع قوله أن المنطق من العلوم النظرية فإنه لم يذكره بين هذه العلوم، ولهذا الأمر سببه فإن الفارابى كان يرى أن العلم إما أن يكون مقصوداً لذاته، وإما أن يكون آلة لتحصيل سواه. وقد ذكر الفارابى أن العلوم

الآلية هى علم اللسان وعلم المنطق وإن كان المنطق جزءاً من الفلسفة عنده. وقد قسم علم اللسان عند كل أمة إلى سبعة أجزاء عظمى:

الأول - علم الألفاظ الدالة، أى علم اللغة.

الثانى - علم الألفاظ المركبة.

الثالث - علم قوانين الألفاظ المفردة، وهو يفحص أولا فى الحروف المعجمة عن عددها ومن أين خرج كل واحد منها فى آلات التصويت وعن المصوت منها وغير المصوت .. وعن تركيبها لتأليف اللفظ الدال وعن الحروف الذاتية التى لا تتبدل فى بنية اللفظ عند لواحق الألفاظ من تثنية وجمع وتذكير وتانيث واشتقاق وغير ذلك، وعن الحروف التى تقاس بها الألفاظ عند اللواحق وعن الحروف التى تندغم عندما تتلاقى .. ثم من بعد هذا يعطى قوانين أمثلة الألفاظ المفردة ويميز بين الحالات الأولى التى ليست مشتقة، وعن الألفاظ التى عسر النطق بها أول ما وضعت فغيرت حتى سهل لنطق بها". وهذا القسم يتناول فى الواقع موضوع علم الصرف.

الرابع - ينقسم إلى شطرين: يتناول الأول علم النحو أى قوانين أطراف الأسماء والكلم عندما تتركب أو تترتب، ويشمل الثانى قوانين أحوال التركيب والترتيب نفسه، وبين كيف تتركب الألفاظ وتترتب فى ذلك اللسان، وعلى كم ضرب حتى تصير أقاويل، ثم يبين أيها هو التركيب والترتيب الأفصح فى ذلك اللسان. وهذا القسم يتناول علم المعانى وعلم البيان.

الخامس - هو علم قوانين الكتابة.

السادس - علم قوانين تصحيح القراءة.

والسابع - هو علم الأشعار ويشمل علمى العروض والقوافى.

وعلم اللسان على ما فصلناه إذا فرغنا من تحصيله وجب علينا حينذاك أن نشغل بدرس المنطق الذى يعطينا "جملة القوانين التى شأنها أن تقوم العقل وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب ونحو الحق فى كل ما يكمن أن يغلط فيه من المعقولات، والقوانين التى تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل والغلط فى المعقولات، والقوانين التى يمتحن بها فى المعقولات ما ليس يؤمن أن يكون قد غلط فيه غالط.

فقوانين المنطق عند الفارابى قوانين عامة لها إلى كل علم مدخل ولابد من مراعاتها حتى نصل إلى الحق اليقين.

وقد قسم الفارابى المنطق إلى ثمانية أجزاء تكلمنا عنها فيما سبق.

وألحق الفارابى بالمنطق كتابى الخطابة والشعر اللذين ألفهما المعلم الأول على أنهما جزء من منطق أرسطو، والواقع أن هذا خطأ شاع بين العرب، وذلك لأن منطق أرسطو يتالف من الأقسام الستة الأولى فقط وهى التى تعرف بالأورغانون ومعناها الآلهة لأنها كالآلات اللازمة فى البحث المستعمل فى كل علم، وذلك لأنها تتناول القواعد العقلية التى لا يستقيم دونها عمل الفكر.

***

هذه العلوم التى بسطنا لك أسماءها ومواضيعها هى فروع الفلسفة عند الفارابى، ولكن هل الفلسفة علم فقط؟

يقول الفارابى: إن للفيلسوف فى هذا الكون رسالة تتجاوز العلم

والتحصيل، وتحقيق هذه الرسالة يخرج الفيلسوف من عزلة النظر والتأمل إلى حياة العمل والكفاح.

بل إن الفارابى يذهب إلى أبعد من هذا فيضع على عاتق الفيلسوف إصلاح الفرد وتهذيب الجماعة وسياستهما على المثل الأعلى فى الحكم.

أما الفيلسوف الذى يثكمل بالعلوم النظرية دون الجانب العملى فهو فى نظره فيلسوف يهرج لا صلة بينه وبين الحياة، فالحياة علم وعمل ولابد للفيلسوف من أن يمتاز فى عمله كما يمتاز فى علمه. ولهذا نجد الفارابى يجعل أهمية كبرى لعلم الأخلاق وعلم السياسة.

ويقدم الفارابى منها علم الأخلاق أو العلم الإنسانى وما فيه من موازين الخير والشر ومقاييس الفضيلة والرذيلة، حتى إذا كمل الإنسان نفسه وجعل شهوته للحق وحده، ونزه نفسه عن النقائص وبعد بها عن الشرور، أمكن حينذاك أن يكون عضواً فاضلا فى مدينة فاضلة، لأن الإنسان مدنى بطبيعته وأنسى بغريزته، وهو فى حاجة إلى التعاون والاجتماع وإلى التآزر والتكاتف، لتحقيق الأسباب التى تكفل السعادة القصوى وهى غاية الفلسفة والغرض الأسمى من الوجود. وحياة الجماعات وأهل المدن وتعاونهم لتحصيل السعادة يتناوله العلم المدنى أو علم السياسة.

إلى هنا بينا مذهب الفارابى فى أقسام الفلسفة وهى عنده - كما رأيت - تشتمل على العلوم العقلية التى تقوم على البرهان الهندسى أو البرهان المنطقى.

ولكن هناك أيضًا طائفة من العلوم لا تقوم على هذه البراهين ولكنها

تتميز فى رأيه بعظيم الجدوى وجزيل المنفعة. هذه العلوم هى العلوم الشرعية وقد ذكر الفارابى منها علم الفقه وعلم الكلام.

أما الفقه فقد ذهب فى تعريفه وتحديد موضوعاته مذهبًا يقرب من رأى أبى حنيفة النعمان إذ جعله شاملا للعقائد وللأحكام.

فقد روى عن أبى حنيفة أنه قال: "إن علم الفقه هو معرفة النفس ما لها وما عليها"، "هذا التعريف يتناول الاعتقادات كوجوب الإيمان ونحوه، والوجدانيات أى الأخلاق الباطنة والملكات النفسانية والعمليات كالصوم والصلاة والبيع ونحوها. فمعرفة النفس ما لها وما عليها من الاعتقادات هى علم الكلام، ومعرفة ما لها وما عليها من الوجدانيات هى علم الأخلاق والتصوف كالزهد والصبر والرضا وحضور القلب فى الصلاة ونحو ذلك، ومعرفة ما لها وما عليها من العمليات هى الفقه المصطلح"

والفارابى يذهب إلى رأى قريب من هذا فيقول "إن صناعة الفقه هى التى بها يقتدر الإنسان على أن يستنبط تقدير شىء مما لم يصرح واضع الشريعة بتحديده على الأشياء التى صرح فيها بالتحديد والتقدير، وأن يتحرى تصحيح ذلك حسب غرض واضع الشريعة بالعلة التى شرعها فى الأمة التى لها شرع.

وكل ملة ففيها آراء وأفعال، فلذلك يكون علم الفقه جزأين: جزء فى الآراء وجزء فى الأفعال.

أما علم الكلام فيرى الفارابى أنه "صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل" وهذا ينقسم جزأين أيضًا: جزء فى الآراء وجزء فى الأفعال.

ويفرق الفارابى بين الفقه والكلام فيقول: "إن الفقيه يأخذ الآراء والأفعال التى صرح بها واضع الملة مسلمة ويجعلها أوصولا فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها، بينما المتكلم ينصر الأشياء التى يستعملها الفقيه أصولا من غير أن يستنبط عنها أشياء أخر"

ونحن نرى من هذا أن الفارابى جعل الاستنباط قاصراً على الفقه دون الكلام، فإذا استنبط المتكلم فهو فقيه متكلم.

ولقد ظن بعض الكتاب أن الفارابى لم يكن يقصد فى كتابه "إحصاء العلوم" أن يكتب فى ذلك النوع من البحث المعروف عند مؤلفى العرب بتقسيم العلوم أو تصنيفها، وعند الأوربيين باسم Classificatoin des Sciences، وبنوا رأيهم هذا على ما ذكره الفارابى فى مقدمة كتابه إذ قال: "قصدنا فى هذا الكتاب أن نحصى العلوم المشهورة علمًا ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها وأجزاء كل ما له منها أجزاء . ."

وذهب بعض الكتاب إلى وصف كتاب إحصاء العلوم بأنه دائرة معارف نجد هذا الوصف عند مونك Munk وفارمر Farmer، ثم نجده عند فريد وجدى وجورجى زيدان وعيسى اسكندر المعلوف.

أما أن "إحصاء العلوم" من الموسوعات فهذا ما لا نسلم به إلا إذا خرجنا بمدلول هذا اللفظ عن معناه المصطلح.

وأما أن الفارابى لم يكن له مذهب فى ترتيب العلوم فهذا ما سنعرض لتنفيذه.

ولنبدأ بتفهم مدلول كل كلمة من هذه الكلمات الثلاث: إحصاء وتصنيف وترتيب.

أما الإحصاء ويقابله بالفرنسية enumeration فمعناه الحصر ونقصد به هنا حصر العلوم.

والتصنيف أو التقسيم ويقابله بالفرنسية Categorisaton هو جعل العلوم أصنافًا فأقسامًا فى مجاميع

أما الترتيب ويقابله بالفرنسية Categorisaton فهو عبارة عن وضع كل جملة من العلوم فى قسم خاص وصنف معين وترتيب هذه العلوم وفقًا لفكرة فلسفية معينة.

فهل كان للفارابى مذهب فى ترتيب العلوم؟ أم كان كتابه مجدر إحصاء للعلوم المشهورة فى عصره؟

الواقع هو أنه كان للفارابى مذهب فى ترتيب العلوم يتميز بالطرافة والاستقلال عن سلطان المعلم الأول ومن جاء بعده من الشراح.

فإنا نجد أن أرسطو قسم العلوم إلى ثلاثة أقسام:

١ - الفلسفة النظرية وتشمل الرياضيات والطبيعيات والإلهيات، وهذه غايتها المعرفة أو الوقوف على الحقيقة.

٢ - الفلسفة العملية وغايتها الخير، وتشمل الأخلاق وتدبير المنزل وعلم السياسة.

٣ - فلسفة الشعر أو علم الجمال، وتشمل الشعر والخطابة والجدل.

ونجد عند الشراح أرسطو كأمونيوس وسنبليقوس وفيلبيون ثم عند الإسكندر الأفروديسى تقسيمًا ثنائيًا للعلوم يقسمها إلى نظرية وعملية.

وقد أورد شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع فى كتابه "سلوك

المسالك فى تدبير الممالك" الذى ألفه للخليفة المعتصم تقسيمًا للعلوم. قسم به علوم الفلسفة إلى ثلاثة أقسام:

العلم الأعلى، وهو علم الإلهيات

والعلم الأوسط وهو علم الرياضيات

والعلم الأسفل وهو علم الطبيعيات

وقد نسب للكندى كتاب "مائية العلم وأقسامه" وكتاب "أقسام العلم الإنسى".

وإن كان هذان الكتابان قد لعبت بهما أيدى الضياع إلا أن جمال الدين بن نباتة يروى أن الكندى قال: "علوم الفلسفة ثلاثة: فأولها العلم الرياضى فى التعليم وهو أوسطها فى الطبع، والثانى علم الطبيعيات وهو أسفلها فى الطبع، والثالث علم الربوبية وهو أعلاها فى الطبع".

ونحن لا نعلم المصدر الذى اعتمد عليه ابن نباتة، على أنه إذا صح ما يرويه عن الكندى فإن الموازنة بين الفارابى وبين من تقدموه جميعًا ممن وصلت إلينا آراؤهم فى ترتيب العلوم تشهد له بالطرافة فى هذا الموضوع وترجح كفته عليهم. فقد خلع عن عاتقه نير التقليد ورسم لترتيبه للعلوم منهجًا أقامه على قاعدتين:

الأولى مبدأ الغائية، والثانية مبدأ الوضوح.

أما مبدأ الغائية فقد تأثر فيه بأرسطو وشراحه، فلاحظ الغاية من العلم عند التقسيم إذ قسمه إلى علم غايته النظر وآخر مقصوده العلم والعمل.

أما مبدأ الوضوح فهو المبدأ الذى يشهد للفارابى بالطرافة، وهو يبدو فى

ترتيبه للعلوم الفلسفية ترتيبًا بدأ فيه بما وضح فى العقل وهى العلوم المجردة، ثم انتقل منها إلى ما وضح فى الخارج وهى الموجودات الطبيعية، ثم انتهى إلى الواضح فى نفسه وإن كان يخفى علينا لشدة وضوحه وقصور ذهننا عن إدراكه لتعلقنا بالمادة، وهو الإلهيات.

ويلاحظ الفارابى فى هذا الترتيب صلة العقل الإنسانى بالمعقولات وطاقته على التحصيل وقدرته على الفهم، فينقل به فى رفق وهوادة من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب.

ومقياس الوضوح عند الفارابى هو التجرد من المادة، فأكثر الأشياء وضوحًا فى الذهن هى الرياضيات، فالحقيقة الرياضية بسيطة متقنة منظمة حسنة التأليف، لذلك يجب أن نبدأ بها "لأنها أحرى ألا يقع فيها حيرة واضطراب الذهن".

ونحن نلاحظ أن هذا الرأى هو الذى هلل له العالم عندما نادى به ديكارت ووضع على أساسه منهجه المعروف وأشار باستعمال الحيلة فى معرفة الأمور الصعبة، فنقدم ما سهل منها ثم نجرئ الصعب إلى مسائل صغيرة نتعرفها واحدة فواحدة ليسهل علينا الطلب ويستقيم الفهم.

ونحن إذا كنا لا نستطيع أن نقطع بأن ديكارت قد اطلع على الترجمة اللاتينية لكتاب إحصاء العلوم الذى اشتهر أمره فى العصور الوسطى إلا أننا نستطيع أن نقرر أن الفارابى قد سبق ديكارت فى هذا المضمار وقرر من قبله المبادئ التى نلمس تطورها ونضوجها فى منهج ديكارت.

ولعل سائلا يقول: لم ذهب الفارابى إلى أن الحقيقة الرياضية هى أشد الحقائق وضوحًا وأقربها إلى فهم الإنسان؟؟ يجيبنا الفارابى على هذا فى قوة

ووضوح فيقول: لأنها بسيطة متقنة منظمة تتميز بجودة الترتيب وحسن النظام وإتقان التأليف.

فالفارابى - إذن - يقدم البسيط فى الطلب والتحصيل كما قدمه من بعده ديكارت، وهذا واضح فى تفاصيل مذهبه. ألسنا نلحظ فى ترتيبه للعلوم أنه يقدم الأعداد لأنها أبسط من الأعظام والأشكال والأوضاع. ثم ينتقل إلى الأعظام التى تلحقها الأعداد أى الهندسة لأنها تتركب من عنصرين: عنصر الأعداد وعنصر الأعظام التى تتصل بالمادة، ثم يقرر فى بساطة ووضوح أن هذه الأعظام يحصل لها خاصة التقدير وجودة الترتيب وإتقان التأليف وحسن النظام من جهتين: من جهة ما لها من ذلك لأنها أعظام، ومن جهة لها ولكن من جهة أنها أعداد.

أو ليس هذا قوى الدلالة على أنه يشير بطلب الحقيقة الرياضية البسيطة حتى إذا وقفنا عليها سلكنا بعد ذلك إلى الطلب ما ألف منها لأن فيه جانبًا واضحًا هو الرياضة؟ فيكتسب المركب من هذه الناحية الدقة وجودة التأليف وحسن النظام؛ ثم ينتقل إلى طلب العلوم المركبة من الأعداد ويسلك فى هذا من البسيط إلى المركب ومن المجرد إلى ما شأنه أن يحتاج فى تصوره وتفهمه إلى مادة ما، حاجة يسيرة جدًا، فيطلب الهندسة لأنها تبحث فى الخطوط وفى السطوح والمجسمات على الإطلاق، ثم يضع بعد ذلك علم المناظر لأنه يفحص عما يفحص عنه علم الهندسة من الأشكال والأعظام والترتيب والأوضاع والتساوى والتفاضل وغير ذلك، لكن على أنها فى خطوط وسطوح ومجسمات، فعلم المناظر أكثر تركيبًا من الهندسة النظرية وأشد منها تعلقًا بالمادة ولهذا وجب أن ينظر فيه بعدها.

وينتقل الفارابى بعد هذا إلى علم النجـوم فيخرج منه علم التنجيم، إذ هو لا يعده ضـمن العلوم التعليـمية، ثم يقـرر أن علم النجوم التـعليمى هو الذى يعد علمًـا صحيـحًا، وهو "الذى يفـحص فى الأجسام السـماوية وفى الأرض عن أشكالهـا ومقـاديرها ونسب بعضـها إلى بعض، ومـقادير أبـعاد بعضها إلى بعض، وفى حركات الأجسام السماوية ونوعها ومكان كل كوكب من أجزاء البروج وما يلحق هذه الأجسام عن حركاتها كالكسوف والخسوف، ويفحص أيضًا عن المعمور من الأرض وغير المعمور وأقاليمها وما يلحقها عن دور العالم المشترك للكل وهو دور اليوم والليلة وطول الأيام وقصرها".

ونحن نلاحظ أن هذا العلم كما حدده الفارابى يشمل علم الفلك وعلم الهيئة وعلم تقـويم البلدان، وقد وضعه الفارابى بعد العـلوم التى تقدمته لأن الحاجة فى تفهمه وتصـوره إلى مادة ما أزيد قليلا من العلوم السابقة ولأنه لا غنى له عن العدد والهندسة والمناظر إذ هى بمثابة المقدمات لتحصيله.

وقد ذكر الفارابى علم الموسـيقى بعد علم النجومن لأنه يعتمـد اعتماداً كليًا علـى الرياضيات، ويحـتاج من ناحـية أخرى إلى الآلات الطبـيعـية أو الصناعية لتأليف الألحان والنغم.

ونحن إذ ذهبنا مع الفارابى فى بسطه لتفاصـيل مذهبه ألقيناه لا ينحرف عنه قيد أنلمة، فيذكر علم الأثقال بعد علم الموسيقى ثم علم الحيل وهو الذى نعرفه اليوم باسم الميكانيكا، وقد جـعله آخر العلوم الرياضية لأنه "علم وجه التدبيـر فى مطابقة جـميع مـا يبرهن وجوده فـى التعاليم التى سـلف ذكرها بالقول والبرهان على الأجسام الطبيعية وإيجادها ووضعها فيها".

ونحن إذ كنا نتدرج من المجرد إلى المادى فقد وجب أن ننتقل بعد علوم

التعاليم إلى العلم الطبيعى لأنه يفحص فى الموجودات التى لا يمكن أن تصير معقولة إلا فى المواد.

ولكن إذا كان الفارابى يسلك فى منهجه من المجرد إلى المادى فلم جعل الإلهيات آخر العلوم الى تطلب؟ ولم لم يجعلها أولى العلوم بالتقديم وهى أكثرها تجردًا ومفارقة للمادة؟

الواقع هو أن الفارابى كان حريصًا على أن تكون الإلهيات تاجًا للعلوم وخاتمة لها، وذلك لأن عقولنا أضعف من أن تدرك المبدأ الأول "لا لخفاء فيه أو نقصان إذ هو فى نهاية الوضوح والكمال، ولكن لضعف عقولنا نحن عسر تصوره لتلبسنا بالمادة التى هى السبب الأول فى أن جعلت جواهرنا جوهرًا يبعد عن الجوهر الأول، إذ كلما قربت جواهرنا منه كان تصورنا له أتم وأيقن وأصدق، وكلما كنا أقرب إلى مفارقة المادة كان تصورنا له أتم، وإنما نصير اقرب إليه بأن يصير عقلا بالفعل، وإذا فارقنا المادة على التمام يصير المعقول منه فى أذهاننا أكمل ما يكون".

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يرى أن الإلهيات التى تعتمد على البراهين اليقينية ينبغى أن تترك للخاصة من أهل العلم، ومن الجلى أنه لا يمكن الوصول إلى هذه المرتبة إلا بعد التفقه فى سائر العلوم الجزئية والوقوف على أسرارها.

***

لعلنا نكون بعد هذا قد وفقنا إلى بيان أن الفارابى كانت له نظرية خاصة فى ترتيب العلوم وأن هذه النظرية تدل على ناحية من نواحى الطرافة فى فلسفته.

ومن طرائف مـذهبه أيضًا أنـه كان مسـتقل الرأى فى الحكم علـى قيم بعض العلوم المشهورة.

نجد مـثلا أن شهاب الديـن بن أبى الربيع قد أورد الكهانة والطلسـمات وأحكام النجوم والفراسة والعناية والرقى والسحر والعزائم والفأل والزجر على أنها متصلة بالعلم الأعلى.

ونحن نعلم أن الكندى كان يستدل على أمور بمواقع الشمس والكواكب إزاء القمر فيوضى باختيار السفر والمقابلات والبيع والشراء والعمارة وغيرها.

وفى رسالته فى ملك العرب وكميتـه نجده يستدل من اقترانات الكواكب على الحوادث، فـعنده أن دلالة العراق اقـتران السرطان مع المشـترى، ودلالة العرب اقـتران العـقرب مع الزهرة، وهكذا لكل برج من البـروج دلالة على ناحية من الأرض.

وهو يعلل كل الحوادث التى حصلت منذ السنة الأولى للهجرة باقترانات خاصة، وفيقول مثلا: "فلمـا كانت سنة إحدى وثلاثين اجتمعا فى السرطان وكان القمر فى الجوزاء ولم ينظر المشترى إليهما فأفسدا أمر الماجرين والأنصار ونقل القمـر الملك وكان فى الجوزاء فرفـعه إلى عطارد فجـعله فى الشام. ثم ينتـهى حسـابه إلى أن ملك العرب سـيزدهر زهاء ثلاث وتسـعين وسـتمـائة سنة".

ولكنا نجد الفارابى قـد أخرج هذه المسائل جميعًـا من عداد العلوم وقرر أنها أمورًا اتفاقية لا يركن إليها إلا من كان فى عقله ضعف، ثم تعجب كيف يمر القمر فـيما بين البصر من الناس بأعيانهم فى موضع من المـواضع فيستر بجزمه عنهم ضوء الشمس وهو الذى يسمى الكسوف فيموت لذلك ملك من

ملوك الأرض. ولو صح هذا الحكم واطرد لوجب أن كل إنسان أو أى جسم كان إذا استتر بسحاب عن ضوء الشمس فإنه يموت لذلك ملك من الملوك أو يحدث فى الأرض حادث عظيم، وذلك ما ينفر عنه طباع المجانين فكيف العقلاء؟".

ثم سخر من القائلين بأحكام النجون لأنهم حكموا على بعض الأجرام العلوية بالنجوسة وبعضها بالسعادة.

على أننا نلاحظ على الفارابى بالرغم من حسن ترتيبه للعلوم وتمييزه بين أصولها وفروعها مما يكشف عن وضوح حدودها فى ذهنه وضوحًا تامًا - أنه لم يعن عناى كافية بعلم تدبير المنزل، فلم ينفرد له بابًا عند كلامه على الفلسفة المدنية وإن كان قد عرض لذكره عند تصنيفه لكتب أرسطو.

ولعل هذا لأن الفارابى عده جزءًا من علم السياسة وصرفه اهتمامه بالكليات وعنايته بها قبل كل شىء عن الكلام فى الفروع.

ومهما يكن من شىء فقد كان الفارابى الفضل فى تعبيد الطريق لمن جاء بعده من الفلاسفة، حتى أننا لنجد صدى مذهبه فى ترتيب ابن سينا للعلوم وإن كان بين الحكيمين فروق تدل على أن ابن سينا حاول الفكاك من أسر الفارابى فازداد تقيدًا بمذهب أرسطو.

***